في الأدب الانكليزي

ماثيو أرنولد

Mathew Arnold

بقلم الأستاذ خيري حماد

— ٣ —

وقد كتب عنه فتش قائلا « لقد نظر نحو المجتمع الإنكليزي فرأى الأغنياء يسعون في جمع المادة وكنزها فيقومون بمختلف الأعمال للحصول على هذه الأمنية ورأى الطبقة المتوسطة تتداني فتصبح مبتذلة محتقرة ، والطبقة العامة تنحط فتصبح بمستوى الوحوش والحيوانات[1] » .

وكانت الطبقة الوسطى موضع حملاته ومسقط إهانته وازدرائه وقد أطلق عليهم لقب الفلستينيين خفضاً من شأنهم وإزراء من أمرهم . وقد وصفهم :

« هم محصورو التفكير ، تطغى عليهم روح التحامل والتغرض فيهملون أمور الدين والعقائد ويتمسكون بأفكار تدل على صغر عقولهم وضآلة قوة التميز فيهم . فلا يستهويهم الجمال بذلك الشعور القوى المندفع ؛ بل يحسون إحساسات خالية من المنطق وحسن التمييز . أخلاقهم منحطة وعواطفهم مبتذلة[1] » .

ولم تكن هذه الأفكار صادرة عن قلة اختبار أو عدم حنكة ؛ كان مبعثها التجربة فلقد اختط أرنولد لنفسه خطة جعلته يختلط بهذه الطبقة ويمتزج بها امتزاجاً ساعده على تفهم عقليتها . فالفلستيني في رأيه هو ذلك الرجل الذي لا يستطيع أن يفهم الآداب ولا يستسيغها ذوقه فهو يتظاهر باطلاعه على معظم الأمور بينما هو في الحقيقة على جانب عظيم من الجهل لا يشغله إلا حضور حفلات الشاي وسمر الأصدقاء والخلان .

وإن هذا التحليل الفلسفي الذي نراه في كتابات أرنولد لأخلاق شعبه لعلى جانب عظيم من الصحة والصدق ، ولكن هذه الدراسة وهذا التحليل لم يكونا في يوم ما تامين ؛ فهو لم

(١) Mixed Essays. Gmold

(١) Jrish Essay : The tuture of liberabiem : Arnold

العادة الغالبة على أهل زمانهم[1] .

والأصل في وضع هذا الأساس وتقرير تلك القاعدة قوله عليه الصلاة والسلام : « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » ، قال العلائي لم أجده مرفوعاً ، وإنما هو من قول عبد الله ابن مسعود ، فقد روى عنه الإمام أحمد وغيره : « إن الله نظر في قلوب العباد ، فرأى قلب محمد خير قلوب العباد ، فاختاره لرسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعده ، فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته ، فما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله قبيح »[2] ، وقال شهاب الدين القرافي : إن الأحكام تجري مع العرف والعادة ، وينتقل الفقيه بانتقالها ، ومن جهل المفتي جموده على المنصوص في الكتب غير ملتفت إلى تغير العرف .

هذا وإنك لتدهش حقاً حينما تطلع على كثرة المسائل الفقهية ، والأحكام التشريعية التي بناها علماء التشريع الإسلامي على العرف والعادة ، إذ اعتبروها أساساً من أسس التشريع بالشروط التي أسلفناها ، ولكن لا يلبث دهشك أن يزول إذا علمت أن القانون الصالح هو الذي تراعى فيه أحوال الأمة الاجتماعية والاقتصادية ، وعاداتها العامة ، على ألا يكون في ذلك إقرار مفسدة ، أو تعطيل مصلحة ، ومن جهة أخرى ، فإن النزع من العادة الظاهرة ، وإقصاء الناس عن العرف العام — في غير حاجة ولا ضرورة — فيه حرج لهم ، ولا شك أن أصلح الشرائع ، وأجدرها بالبقاء ما روعي فيها اليسر ، وانتفى منها الحرج والعسر ، وذلك ما تحقق في شريعة الإسلام .

(يتبع)

حسن أحمد الخطيب

(١) رد المحتار ج ٤ ص ١٠٠ .

(٢) الأشباه ص ١٢٦ والطرق الحكمية ص ٩١ .

يفهم حقيقة الطبقة الوسطى وأهميتها فى المجتمع البشرى ، ناهيك عن جهله لحياتهم وعقائدهم ، فقد نسى أو تناسى أنهم مصدر الحياة وينبوع النشاط فى كيان الأمة ، فدولاب الأعمال فى أيديهم وحركة التجارة والصناعة لا تخرج عن دائرتهم .

كان أرنولد يعتز لقب البروفسور ولقب الفيلسوف ولكنه فى الحقيقة كان فيلسوفاً بأتم ما يفهمه هذا الإسم من معان وصفات . وهذه الفلسفة التى نراها فى مؤلفاته هى فلسفة ابتداعية ابتكرها من نفسه ولم ينقلها عن سابقيه من كبار الفلاسفة أمثال ابيقور وسقراط وغيرهما ؛ فقد أحب دراسة تاريخ الأديان ، واطلع على أسس الديانة المسيحية وعقائد اليهودية الجديدة وحاول أن يمزج هذه العقائد ببعضها فيخرج لشعبه فلسفة دينية جديدة ويكون لهم فكراً حديثاً عن حقيقة الأديان وغاياتها .

وفى كتابه : « الثقافة والفوضى » نرى عقائده الفلسفية ظاهرة تمام الظهور ونظامه الفلسفى واضحاً أتم الوضوح ؛ فالثقافة فى رأيه هى التطور فى سبيل الكمال ، وتفهم كل ما يحيط بنا من حقائق وظواهر طبيعية وغير طبيعية مما تؤثر فى كياننا الشخصى والعلمى . وما هى فى الحقيقة إلا الإطلاع على أحسن ما فكر به العلماء والعقلاء من رجالات الأمم ونابهى أمرها . وفى هذا الكتاب نراه يسجل عقيدته المحبوبة التى أطلق عليها لقب « العذوبة والضوء »

وقد اقتبس أرنولد هذا التعبير من الكاتب الشهير جوناثان سوفت ولكنه اختلف عن سوفت بكونه عنى به شيئاً يخالف تمام المخالفة ما عناه سوفت من قبل ، فقد جعله اسماً لشىء أرقى وأسمى بكثير مما عناه سالفه . فالثقافة تشمل نوعين يكمل أحدهما الآخر وهما المعرفة والطبع . وما النتيجة المتوخاة منهما إلا إنفاذ أمر الله وتحقيق إرادته مسجوبين بتحكيم العقل ، وسعة الإدراك .

وكان للثقافة فى رأيه أوجه عدة ، فلم تكن لتختصر فى الإحساس العلمى بل تتعداه إلى الميل الغريزى نحو العمل والمساعدة والسعى إلى ما فيه الخير العام . وكل هذه الأوجه مفيد ونافع من حيث أنه ينطوى على الرغبة فى إزالة الهفوات البشرية وفى تنقية صفحة المجتمع بإزالة آثار التعاسة والبؤس منه . وما هى فى الحقيقة إلا السعى فى ترك العالم ومغادرته أكثر سعادة وأعظم شأناً من الحالة التى وجدناه فيها عند بداءة أمرنا .

ولم تكن الثقافة فى نظره يوماً ما وليدة حب الإستطلاع والفضول بل حب الكمال وعدم النقصان . فما هى إلا دراسة الفرد لأحوال مجتمعه ، ومحاولة سد كل نقص يجد ، وفيه تندفع فى طريقها تحفزها المعرفة ويقودها الشعور الأخلاقى الإجتماعى للسعى إلى ما فيه خير الناس والانسانية .

ومعظم أفكاره الفلسفية تتلخص فى الفقرة التالية التى كتبها « الثقافة تتطلع إلى مرمى أبعد مما يتطلع إليه الانسان العادى . فهى تكره الحقد ويدفعها شعور عظيم واحد هو شعور الجمال والضياء . وهنالك دافع أشد من هذا وأقوى ، هو تنفيذهما وإحداث أثر ظاهر فى الكيان الانسانى . وهى لا تنفك دائبة على العمل حتى تنتهى من إصلاح أنفسنا وتكييفها بشكل تام كامل . وإن تطور بعض الناس الأخلاق الناتج عن تأثير « العذوبة والضياء » لغير كاف ما لم يسد هذا الشعور جميع طبقات المجتمع فيحدث الأثر المتوخى والنتيجة المقصودة[1] » .

ونرى أرنولد دائم الحض للناس على العمل لاظهار الافكار الحقيقية والجمال الطبيعى ، والعذوبة الغريزية والضوء الفطرى . وأن من الواجب على الأفراد المستنيرين تغذية عقول الشعب وتثقيفهم الثقافة الضرورية . وما عظام الرجال فى رأيه إلا أولئك الذين يستطيعون توزيع المعرفة والأفكار السامية على عقول أبناء جلدتهم وبنى وطنهم من شتى الطبقات ومختلف الرتب والمناصب والذين جربوا بكل قواهم أن يرهفوا الثقافة الخشنة الصعبة المراس فيجعلوا منها أداة سامية ، أداة عاملة لرفع مستوى التفكير والمعرفة الانسانيين ؛ وخلق « العذوبة والضوء » الذين يتوخاها العالم ويحتاج إليهما .

لقد حاولنا فى الفقرات السالفة أن نجمع بعض الأفكار التى أدرجها أرنولد فى مؤلفاته ونحللها تحليلا فلسفياً معقولا . ولقد يتراءى لنا أن فلسفته كلها تنحصر فى هذه العقائد التى ذكرتها مع أنها فى الحقيقة تكون قسما أعظم وأكثر اتساعا . وقد فضلت أن أبحث فى فلسفته الدينية بحثاً خاصاً ، فأرجأت تحليلها إلى الصفحات التالية .

(يتبع)

مبرى حماد

(١) Culture and Inarchy Grosid P. 37